الازدواجيات وتعدّد اللّهجات واللغات

بقلم الأستاذ محمد السرغيني
مفتش اول بوزارة التربية الوطنية بالمملكة المغربية

القى الاستاذ محمد السرغيني محاضرة قيمة تصدى فيها لبحث مشكلة الازدواجية اللغوية في التعليم بالمملكة المغربية ، وقد ابدى آراءه على ضوء خبرته في هذا المجال مستهلا عرضه بالتعريف الصحيح لمدلول اللغة ثم اوضح بعد ذلك الفرق بين اللغة واللهجة قبل ان يدخل في صميم موضوع محاضرته التي نقدم فيما يلي اهم ما جاء فيها :

الازدواجية العامة وقضية الفصحى والعامية :

... ولنلق الآن نظرة خاطفة على ما يطلق عليه الازدواجية اللغوية ، حاصرين بحثنا في النطاق المحدود للتعليم في بلادنا المغربية وما طرأ عليه من تغيير خلال السنوات الاخيرة .

عندما يلتحق الطفل المغربي بالمدرسة لاول مرة يكون قد انتقل تدريجيا وطبيعيا من مرحلة التكلم بلغة الطفولة العذبة الجميلة الى مرحلة اللهجة المحلية الخاصة التي تعلمها عن طريق التقليد في المحيط العائلي والوسط القومي ، فتعود منذ نعومة اظفاره استعمالها في بيئة اسرته ومجتمع اقرانه الصغار .

وبمجرد دخوله الى حجرة الدرس في السنة السادسة او السابعة من عمره يجد نفسه امام معلم يخاطبه بلغة اخرى ، وان كانت هي الاصل ، الا انها تختلف اختلافا كبيرا عن العامية او الدارجة . فنرى طفلنا منذ اتصاله بهذه المؤسسة الموقرة يضطر الى مراعاة قوانين اصطناعية خاصة بتلك اللغة التي تكتب وتقرا اكثر مما تستعمل في المخاطبة وهي خاضعة لقواعد النحو والصرف والاملاء وغير ذلك .

ومما لا شك فيه ان هذا التحول في كلام الطفل وارغامه على النطق بالفاظ عربية جديدة تخالف جل المفردات المكتسبة بصورة طبيعية تلقائية وهذا امر لا يهون على عقل متعلم مبتدىء صغير . وغير خاف على رجال الفكر والعلم والتربية ما لهذا التحويل من خطورة واضرار في تكوين الطفل وما له من آثار بالغة في نفسيته وتطوير عقليته .

وحسبنا دليلا على هذا التأثير الخطير ما يعانيه التلامذة من صعاب للتمكن من لغتهم الجديدة، وما يبذله المعلمون من جهود مستمرة للوصول بهم الى التعبير السليم قصد الفهم والتفهيم .

ولعل هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل بعض المربين ينادون باستعمال اللغة الام ، اداة

ووسيلة للتعليم ، مقترحين عند امم شتى العمل قدر الامكان على التقريب بين التعبير الشفوى المتداول والتعبير الكتابى الفصيح .

اما بالنسبة لنا ، فالفرق لا يزال كبيرا والبون شاسعا بين اللغة العربية واللهجات المحلية وانى لست اغالى ولا اعدو الحق اذا قلت ان تلميذنا يكون مزدوج اللغة ، بكل ما تنطوى عليه العبارة من معنى، منذ اللحظة الاولى من حياته المدرسية .

والحقيقة ان قضية الفصحى والعامية ليست خاصة بالمغاربة وحدهم ، فهى تعم العرب جميعا فى مشارق الارض ومغاربها من المحيط الى الخليج ، والمصيبة ، كما يقول المثل ، اذا عمت هانت ، ولكن ليس معنى هذا ، ان نضرب عنها صفحا ونتركها لسير التاريخ والاحداث ، تفعل بها ما تشاء ، بل من واجبنا كمربين ان نلقي عليها بعض الاضواء ونتناولها بالدرس والتمحيص ، لعلنا نصل فى يوم الى حلول نسبية تساعدنا على تبسيط عملية التربية وتسهيلها .

والواقع هو ان المشكلة قد شغلت وما زالت تشغل بال المربين وتثير الجدل والمناقشة بين المفكرين فى مختلف البلاد العربية منذ مدة يسيرة .

اذن ، فنحن عرب اليوم ، بين لغة فصحى يتفاهم بها بعض الناس فى جميع البلاد العربية ، وبين لهجات عامية متعددة اصبحت كل منها وسيلة للتفاهم فى بعض المناطق المحدودة من البلاد العربية .

ولا حاجة الى القول بأن هذه الحالة مخالفة لمقتضيات الحياة القومية وكرامتها من وجوه عديدة ومؤثرة تأثيرا قويا على المواطنين عموما والمتعلمين منهم خصوصا .

فكل امة من الامم محتاجة الى لغة موحدة تزيد افرادها تجاوبا وتماسكا فتشكل عاملا من اقوى عوامل التوحيد . لان مهمة اللغة فى الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية لا تنحصر فى ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون فى قرية او مدينة واحدة، ولا بين الذين ينتسبون الى اقليم او قطر واحد بل هى ضمان التفاهم والتخاطب والتجاوب بين جميع ابناء الامة على اختلاف مدنهم واقاليمهم .

والتاريخ الحديث ملىء بالامثلة البليغة الدالة على الجهود الجبارة التى كان ولا يزال يبذلها عدد غير قليل من الامم والدول فى هذا السبيل حفظا على استقلالها وضمانا لوحدتها .

الازدواجية الخاصة

هذه نظرة موجزة عن الازدواج اللغوى العام المشترك بين العرب. وهناك نوع من الازدواجية خاص بطبقة لا يستهان بها من المغاربة الناطقين بلهجة بربرية كتشلحيت او تمازيغت مثلا . فاذا كان الطفل المتكلم بالعربية الدارجة تعترض سبيله عراقيل لا يحصى لها عد حين شروعه فى تعلم العربية الفصحى ، فما بالك بالطفل الذى تعود استعمال لهجة محلية اخرى بعيدة كل البعد عن لغة الضاد ، وذلك رغم العوامل المؤثرة فى نشر هذه اللغة من كثرة مواصلات واجهزة اذاعية وغيرها ؟ فمشكلة هذا الصنف من الاطفال ، فى بعض القرى والبوادى ، تكتسى صبغة خاصة متركزة فى ازدواج لغتين اثنتين مختلف كل الاختلاف عن ازدواج العامية والفصحى عند الطفل الحضرى .

ويزداد هذا المشكل حدة اذا كان الطفل من النازحين الى المدن وضواحيها طلبا للعمل والكسب مع افراد اسرته . فانه كثيرا ما يرى نفسه ملزما بتعلم الفصحى ، وهى لغة التلقين فى المرحلة الاولى للتعليم ، وفى نفس الوقت تفرض عليه هجرته الى المدينة اكتساب لهجة عربية محلية عن طريق الاحتكاك اليومى بمواطنيه الذين اصبح يعيش فى وسطهم الجديد بالنسبة اليه .

ومن الطاف الله الخفية انه يتلقى لهجته الثانية بصورة عفوية دون ان يلجأ الى معلم او مدرسة . ولكن لا ينبغى ان يغيب عن الاذهان ما ينجم عن هذه « الثلاثية» (او التريكلوسى كما يعبر عنها الفرنسيون) من اضطراب وارهاق فى تربية النشء وتكوينه تكوينا سليما .

وهكذا ، نشاهد طفلنا ، وهو لا يزال فى بداية التكون ، يجابه صعوبات الازدواجية او الثلاثية احيانا .

الازدواجية الاستعمارية :

ويا حبذا لو كان الامر يقف عند هذا الحد بالنسبة لاطفالنا ! لكن الاقدار شاءت ان تضاف الى

مشكلة ازدواجيتنا العامة وازدواجيتنا الخاصة بما فيها من لهجة ثالثة احيانا ، ازدواجية اخرى من نوع غريب : وهى التى تسلطت على جل الاقطار العربية فى حالة سباتها وركودها وقد اخذ المغرب نصيبه من هذه البلية عن طريق الاحتلال الفرنسى جنوبا والاسبانى شمالا . ذلك الاحتلال الذى فرض لغتيه فرضا فى الميادين الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وفى طليعتها طبعا ميدان التعليم . فما لبثت اللغة الاجنبية ان اكتسحت مرافق الادارة وبسطت سيطرتها المطلقة على المؤسسات التعليمية لتنفذ اخيرا الى الاذهان وتستولي على القلوب والعواطف باسم التقدم والحضارة والتقنية مدة نصف قرن تقريبا .

ولنختصر الآن الكلام عن المراحل التى مر بها تعليمنا الابتدائى العصرى قبل ان نتخلص لوصف الازدواجية الاستعمارية . فتعليمنا الابتدائى فى عهد الاحتلال كاد يكون فرنسيا صرفا فى الجنوب واسبانيا فى الشمال ، اذا نحن استثنينا تلك السويعات التى كانت تخصص لمادة اللغة العربية فكانت ميزة هذا التعليم خلال السنوات الاخيرة للحماية الازدواج مع ميل كفة الفرنسية او الاسبانية ووجود لغة سائدة واخرى مسودة كما يشهد بذلك بعض المربين الاجانب انفسهم .

ومنذ سنة 1956 دخل تعليمنا الابتدائى فى مرحلة دقيقة من حياته تعرب فيها تدريجيا القسم التحضيرى ، فالابتدائى الاول ، مع بقاء ازدواجية متساوية فى الابتدائى الثانى والمتوسطين . وفى السنوات الثلاث الاخيرة – قبل اكتوبر 1967 – رجحت الكفة نهائيا لفائدة العربية ، فأصبحت المواد الاساسية كلها معربة مع الاحتفاظ بعشر ساعات اسبوعيا لتعليم اللغة الفرنسية لاسباب سنشرحها فيما بعد .

فما هو مصير الطفل فى ذلك وهو طبعا مسير لا مخير ؟ اننا نراه بعد ازدواجيته الاصلية (عامية وفصحى) وازدواجيته الخاصة (لهجة محلية وفصحى وعامية) مطالبا بتحمل ازدواجية جديدة ، ليس لها من الازدواجية الا الاسم ، لان اللغة السائدة فيها قد اصبحت العربية والمسودة هى الفرنسية . ومما يزيد فى الطين بلة انه لاسباب موقتة ولكنها قاهرة ترجع الى قلة اطرنا التعليمية فى المواد العلمية ، نحاول جعل اللغة المسودة فى الابتدائى هى السائدة فى الثانوى ، وفى ذلك من التناقض التربوى ما فيه .

فتصوروا معى لحظة ، ما يتطلبه اكتساب لغة واحدة والتصرف فيها من استعدادات فطرية ومواهب عقلية وجهود مضنية من المعلمين والمتعلمين على السواء ، فضلا عن كون الامر يتعلق بتعلم ثلاث لغات بالنسبة للبعض واربع بالنسبة للبعض الآخر !

ان ازدواجنا الاصلى له وحده من العواقب السيئة ما يستعظم . وطفلنا المغربى كسائر الاطفال فى العالم . لا يمكننا ان نحمله اكثر مما يطيق .

ولنترك فى هذا الصدد الكلام لالبير ميمى ليصف لنا الازدواجية الاستعمارية . قال فى كتابه: « وصف المستعمر » (بفتح الميم) :

« وتتجلى هذه البلبلة الجوهرية بصفة خاصة فى شخصية المستعمر (بفتح الميم) ، وتكتسى صبغة رمزية فى الازدواجية الاستعمارية . وهذا بمجرد ما يتخلص من الامية يسقط فى هوة تزاحم اللغتين ان ساعده الحظ على ذلك لان معظم الذين اصابهم الاستعمار لا سبيل لهم الى تحمل مشاق تلك الازدواجية فلا يستعملون غير لغتهم الاصلية التى لا تكتب ولا تقرأ ولا تمكنهم الا من ثقافة سماعية تافهة مشكوك فى فعاليتها .

« اجل ان هناك اقلية من المثقفين قد تشبثوا بخدمة لغتهم القومية تخليدا لها واحياء لماضيها الزاخر بالعلم والمعرفة ولكن هذا اللون من الثقافة الراقية قد فقد منذ زمن بعيد كل اتصال بالحياة اليومية فتوارى عن ادراك رجل الشارع الذى اصبح يضعه فى منزلة المخلفات المقدسة وينظر الى الذين يحملون رايته من الشيوخ الفضلاء كما ينظر الى الذين يسيرون وهم يعيشون فى حلم قديم

« ويا حبذا لو كان للغة الام فى الحالة الراهنة سلطان على الحياة الاجتماعية فاستعملت عند الوقوف امام شبابيك الادارة وسيطرت فى المواصلات البريدية . فهذا ايضا لم تحلم به لان المصالح كلها ، ادارية كانت ام قضائية او فنية ، ابت الا ان تستعمل لغة المستعمر وهى اللغة البارزة على الصوى الكيلومترية ولافتات المحطات والشوارع وصكوك المخالصة حتى ان المستعمر (بالفتح) الذى لا يعرف سوى لغته امسى غريبا فى بلده .

« وقد تحتمت ضرورة الازدواجية فى الوضع الاستعمارى بحكم استعمالها فى كل اتصال وكل ثقافة وكل تقدم غير ان الفرد المستعمر المزدوج اللغة لا يتخلص من قيود هذا الحصار الا ليواجه كارثة ثقافية ليس فى امكانه ان يتغلب عليها بصفة نهائية.

« على ان عدم المطابقة بين اللغة الام ولغة التثقيف غير خاص بالمستعمر (بالفتح) وحده ولكن الازدواجية الاستعمارية لا يمكن ان تقارن بغيرها لان الحصول على لغتين ليس معناه امتلاك اداتين للتعبير فحسب بل هو المشاركة ايضا فى عالمين نفسانيين وثقافيين والعالمان المعنيان هنا واللذان لكل منهما لغته الخاصة متنازعان متناضلان : الا وهما عالم المستعمر وعالم المستعمر .

« هذا واللغة الام التى تغذيها احاسيس المستعمر (بالفتح) واهواؤه واحلامه والتى يتحرر بها حنانه واندهاشاته وتنطوى على اقوى ما يكنه من طاقة عاطفية هى اللغة بالذات التى انحطت قيمتها وضاعت كرامتها سواء بين المواطنين او بين الشعوب . فاذا ما سعى وراء مهنة او مكانة واراد ان يعيش بين اهل بلده او سائر العباد تعين عليه قبل كل شىء ان يخضع للغة الاجنبية لغة المستعمرين الذين استعبدوه : فلا غرابة ان تخرج اللغة الام من المعركة التى يخوضها المناضل عن كيانها صاغرة مقهورة فلن يلبث هو نفسه ان ينظر اليها لامر ما بعين الاحتقار فيتجنب استعمالها ويتجاهلها لدى الاجانب ولا يرتاح له بال الا اذا كان تعبيره بلغة المستعمر .

وخلاصة القول ان الازدواجية الاستعمارية ليست من ذلك النوع الذى تتعايش فيه لهجة شعبية بجانب لغة فصحى مهذبة مع انتمائهما الى عالم عاطفى واحد ، كما انها ليست مجرد ثروة متوفرة الفائدة بتعدد اللغات مع الاتسام بالحياد المناسب : انها مأساة لغوية ..»

مشكلة تعدد اللغات :

ولنرجع الى ما نحن بصدده، وهو التاثير اللغوى فى التكوين التربوى : عامية وفصحى او لهجة محلية وفصحى ، او عامية ولهجة وفصحى ، ثم ازدواجية دخيلة ، هذا هو ما يقاسيه تلميذنا المغربى فى التعليم الابتدائى العصرى العمومى .

اما اذا ابتسم له الحظ فعبر الطور الاول الثانوى ثم وصل الى الطور الثانى منه فانه يصبح «بولكلوت» (اى متعدد اللغات) بكل ما تحمل الكلمة من معنى بحيث يتحتم ان يحاول تعلم لغة او لغتين اجنبيتين علاوة عن العربية الفصحى وما تلقنه منذ طفولته الاولى من عامية او لهجة خاصة بالوسط الذى عاش فيه .

فلا غرابة ان يصل هذا التلميذ المسكين الى نهاية دراسته الطويلة المضنية منهوك القوى ولم يحصل سوى على قشور من تلك اللغات التى هي فى الحقيقة اداة للتبليغ لا غاية فى حد ذاتها .

نوع التعليم	لغة الطفل قبل الدخول الى المدرسة	لغة التعليم فى الابتدائى	لغة التعليم فى الثانوى	اللغة الاجنبية	مجموع اللغات واللهجات
الاصلى والحر المعرب	العامية او اللهجة المحلية او هما معا	العربية الفصحى	العربية الفصحى	الاولى والثانية اجبارية	4 او 5 (3)
الحر العصرى	» »	الازدواجية	الازدواجية	لغة اجنبية ثانية	4 او 5 (3)
العصرى العمومى	» »	الازدواجية	الازدواجية	لغة اجنبية ثانية	4 او 5 (3)
تعليم البعثة	» »	اللغة الفرنسية	اللغة الفرنسية	لغة اجنبية اولى وثانية	4 او 5 (3)

فماذا يستخلص من ذلك كله ؟

اذا ما طرحنا من الحساب لغة الطفل قبل دخوله الى المدرسة ،سواء كانت هذه اللغة عربية عامية ام لهجة من اللهجات المحلية ، يظهر لمن يلقى نظرة على الجدول ان عدد اللغات الملقنة متساو فى كل نوع من انواع التعليم ، لغة اصلية ولغتان اجنبيتان ، بحيث لا حاجة الى التشاؤم . ولكن الشيء الذى يتحتم علينا كمربين ، لنا كلمتنا فى التكوين ، هو الحكم على عمق المسائل لاعلى ظواهرها. فالامر هنا ليس متعلقا بعدد اللغات ، بل فى درجة استعمالها اى اعتبارها كلغات اساسية للتعليم والتلقين ، او كلغات ثانوية تكميلية للتثقيف .

1 ــ ان الحالة عادية وطبيعية فى الشعبة الاصلية والحرة المعربة حيث الامور تجرى مجراها الطبيعى وفقا للمناهج المطبقة فى سائر البلدان المتقدمة : لغة اصلية موحدة فى الابتدائى هى العربية الفصحى ولغتان اجنبيتان فى الثانوى . وهذه الشعبة ، هى مثال التعليم النموذجى القومى للمستقبل ، اذا ما توفرت على الاطر الصحيحة والتجهيزات الضرورية

2 ــ وكذلك الامر فى تعليم البعثة ، فان الحالة طبيعية بالنسبة للاجانب الذين يتلقون تعليما ابتدائيا متينا بلغة اصلية موحدة هى الافرنسية تضاف اليها لغتان اجنبيتان فى الثانوى . ولكن بالنسبة للمغاربة الذين اختاروا لابنائهم هذا النوع من التعليم ، فالحالة مخالفة تمام المخالفة لما سبق . فلغة تعليمهم هى الفرنسية عوض العربية التى لا يتعلمونها الا كلغة اجنبية فى الثانوى .

فحصصها الاسبوعية ضئيلة طبعا ، وبرامجها خاضعة لنظام دخيل . فمن اجل ذلك ، لا يمكن للمتخرج من مدارس البعثة ، باستثناء بعض الشواذ ، ان يعرف من اللغة العربية وآدابها وعلومها وحضارتها الا المقدار الذى يعرف عن الانجليزية او الاسبانية ، من اختار هذه اللغة او تلك فى دراسته الثانوية . وقد نجد من التلامذة من يعوضون لغتهم القومية بلغة اخرى من اللغات الحية اما فى البداية ام فى النهاية ، الشيء الذى يؤدى الى انفصال يكاد يكون كليا عن معالم الحضارة العربية والمقومات الاسلامية .

كما ان هناك صنفا من المواطنين الاسرائيليين المغاربة ، لا يقبلون الا على تعليم البعثة ومعظمهم يختارون فى دراستهم الثانوية كل لغة اجنبية الا العربية ، وليس المقام مناسبا لشرح اسباب هذا الاختيار .

والحقيقة بالنسبة للجميع ، ان كل واحد يبحث عن تعليم متين ، يقدم بلغة واحدة فى الابتدائى ، مع اجتناب اخطار الازدواجية الموجودة فى غيره .

3 ــ اما فيما يخص الشعبتين الاخيرتين من حر عصرى معرب ، وعمومى عصرى ، فيتميزان بازدواجيتهما فى الابتدائى والثانوى . والشعبة العصرية العمومية كما هو معروف هى المشتملة على جل التلاميذ المغاربة والتى يصرف عليها القسط الاوفر من ميزانية التربية الوطنية ، فنجد اللغة العربية واللغة الاجنبية فيها تتنازعان من اجل البقاء ليحتفظ كل منهما بالدرجة الاولى فى التعليم والتلقين ، وتتقاسمان الحصص الاسبوعية التى لا يمكن ويا للاسف الزيادة فيها لاسباب تربوية غير خفية عنكم .

وهذه الحالة التى اصبح الكل مقتنعا بأنها حالة استثنائية ، موقتة ، منافية للانظمة التعليمية السليمة ، هى التى جعلت تعليمنا يدور فى حلقات مفرغة ، ولاسباب عدة ، اوجزها ايجازا فى النقط التالية :

1 ــ الازدواجية المعمول بها فى الابتدائى لم يبق لها من الازدواجية الا الاسم بل اصبحت بتراء ، غير قادرة على اداء رسالتها التهذيبية لكون لغة التعليم فى الاقسام كلها من التحضيرى الى المتوسط الثانى صارت كما قلنا هى العربية ، ولم يحتفظ باللغة الاجنبية الا كلغة ثانية فى الابتدائى الثانى والمتوسطين . ورغم الحصص المخصصة لها ، فلا اطرنا التعليمية الابتدائية المغربة ، ولا طرق التعليم المنتهجة بقادرة على اخراجنا من الورطة بجعل اللغة الاجنبية فى المستقبل اداة صحيحة لفهم العلوم وتمثيل التقنيات ، الشيء الذى يؤدى حتما الى عملية تحويلية خطيرة فى الثانوى .

2 ــ الازدواجية الحقيقية التى مكنت بعض المغاربة من التصرف فى لغتين اثنتين ، تصرف المالك فى ملكه ، والتى كثيرا ما كان يرجع الفضل فيها الى الجهود المبذولة داخل المدرسة وخارجها من طرف المعنيين بالامر انفسهم ، اقول ان هذه الازدواجية صارت فى خبر كان .

ولم يبق كما اشرت الى ذلك فيما سلف ، الا ناطق بالعربية على قدر الامكان ، وبالفرنسية او الاسبانية فى نطاق محدود ، او مخضرم تتفاوت معرفته فى هذه او تلك ، لا هو يحسن الاولى ولا هو يحسن الثانية .

3 ـ واذا كانت نتائج التعليم قد اتصفت بشىء من الجودة فى فترة من حياة الحماية وبعدها بقليل ، فلم يكن يرجع الفضل فى ذلك الى الازدواجية ، حيث لم تكن هناك ازدواجية بل لغة غالبة ولغة مغلوبة ولغة مسيطر عليها .

كان الفضل فى النتائج المحصل عليها يرجع اولا واخيرا الى كفاءة المعلمين واساتذة وايمانهم كل الايمان بأداء رسالتهم ونشر لغتهم . اضف الى ذا وذاك قلة المتعلمين وحرص تلك الاقلية على التحصيل ، دون ملل او كلل . فلغة التعليم كانت لغة المستعمر ، واللغة العربية انما كانت تعلم بقصد التبرك ، وقد كان فى ذلك بالفعل من البركة ما كان .

4 ان جميع الاموال التى تصرف فى تعليم قشور من اللغة الاجنبية فى الابتدائى ، تذهب هباء منثورا بالنسبة لجميع الاطفال الذين يتعذر عليهم الدخول للثانوى حيث لا يمكنهم الانتفاع بها حتى فى بيئتهم الاجتماعية .

5 ـ اما بالنسبة لمن يلجون ابواب الثانوى ، فتنعكس الآية ، وتصير اللغة التى كانت السائدة هى المسودة والعكس بالعكس . وعملية كهذه ، زيادة على ما تتطلبه من مصاريف باهظة واستيراد من المعلمين والاساتذة ، تقتضى تحويلا فى المكاسب والمفاهيم ، وتغييرا فى الطرق والاساليب لا مثيل له فى النظم التعليمية السليمة . وهذه النقطة بالذات هى التى تسترعى اهتمامنا كمربين وتحتم علينا ان نفكر مع المسؤولين فى ايجاد الحلول الناجعة لها لصالح الوطن والمواطنين .

الحلول المقترحة

يجب اولا التفكير جديا فى حل جذرى نهائى لمشكلة الازدواجية الدخيلة بحيث تصير لغة التعليم موحدة فى جميع انواعه. وهذا لا يتأتى طبعا الا اذا وضع تصميم محكم ، مدقق لمدة محددة يضمن تهيىء الاطر اللازمة لتعريب كل المواد الدراسية سواء كانت ادبية ام اجتماعية ام علمية ورياضية .

وتكوين هذه الاطر ، وان كان عسيرا ، هو وحده الذى سيمكننا من حذف اللغة الاجنبية من الابتدائى ومتابعة عملية التعريب سنة بعد سنة فى الثانوى ، فترجع المياه الى مجاريها الطبيعية ويصير تعليمنا مسايرا للاسس التربوية المعمول بها عند كثير من الامم الناهضة :

تعليم ابتدائى قومى موحد ، لغته العربية وتعليم ثانوى موحد ايضا، لغته العربية، مع الاحتفاظ بلغة اولى حية ولغة ثانية اذا اقتضى الحال ذلك ، نظرا لمكانة هذه او تلك فى ميدان الحضارة والعلم والتقنية .

واعتقد ان دراسة لغة اجنبية واحدة ، ابتداء من الطور الاول الثانوى، دراسة متقنة وبالاساليب السمعية البصرية الحديثة كافية تمام الكفاية ، لمن يود فى المستقبل التخصص فى العلوم والتقنيات . ومن الطلبة فى عصرنا هذا ، من يتوجهون الى الخارج لاول مرة ، بعد حصولهم على الباكلوريا ، فيقضى سنة كاملة فى تعلم لغة اجنبية من الالف الى الياء ، يستعملونها كأداة فى تعليمهم العالى . فما بالك اذا كانوا قد درسوا تلك اللغة كما قلنا خلال سبع سنوات وبحصص مناسبة ، قبل اقبالهم على التعليم العالى .

ويجب ثانيا ان نفكر مع اخواننا العرب فى الوسائل التى ستساعدنا فى المستقبل البعيد على التخلص من بلبلتنا الحالية ، كما اشرنا اليها فى اول حديثنا ، حتى ننعم بنعمة لغة موحدة وموحدة ، فى جميع الاقطار العربية .

ولقد خطر ببال كثير من المفكرين واللغويين ثلاثة سبل اساسية للوصول الى هذه الغاية :

1) السعي وراء نشر وتعميم لغة من اللغات الدارجة : اى لهجة من اللهجات العامية على جميع البلاد العربية .

2) السعي وراء نشر اللغة الفصحى ، بين جميع طبقات الشعب فى كل قطر من الاقطار العربية

3 ـ السير على طريقة متوسطة بين الاولى والثانية على اساس تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى .

ولا حاجة للبيان ان الطريقة الاولى ، اى طريقة تعميم لغة من اللغات الدارجة على جميع البلادالعربية،

غير منطقية وغير عملية . فلابد اذن من التوجه الى اللغة الفصحى ، التى لها جذور عميقة واسس متينة، وممثلون اقوياء فى جميع الاقطار العربية . فيبقى الحل منحصرا فى الطريقتين الاخيرتين وحدهما ، اللتين لا زالتا تتطلبان القيام بأبحاث علمية واسعة النطاق ، تتناول اللغة الفصحى واللغات الدارجة فى وقت واحد وتدرس القضايا بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع وجوهها .

ومن المعلوم انه اخذ يتكون فى بيئات المثقفين فى جميع البلاد العربية ، وذلك منذ زمن نوع من لغة التخاطب ، يطلق عليها بعض المستعربين اسم « العربية العصرية » اقتبست الشىء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من الاساليب العلمية .

فيجدر بنا ان نتعمق ونتوسع فى دروس هذه التطورات وتدوينها لنستفيد منها ونستنير فى تقرير خططنا الاصلاحية .

وقد اثار الاستاذ هنرى بيريس ، فى مقدمة كتابه « الآداب العربية والاسلامية من خلال النصوص الى التخلص من هذه الازدواجية الخطيرة كما سماها ؟

« يمكننا ان نتصور بسهولة ، حلا للمشكل ، وهذا الحل سيأتى به الزمان . نعم ، فبانتشار التعليم ، ستتطور اللهجات ، دون ان تنقرض نهائيا، وستقترب شيئا فشيئا وقليلا قليلا من اللغة الفصحى، التى ستزداد هكذا بألفاظ جديدة »

وفى هذا الباب، عقد الاستاذ الكبير، الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتاب فقه اللغة، فصلا قيما لمن اراد ان يتوسع فى مشكلة اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث ، مضمنه ان الطريقة المثلى هى ان ندع الامور تجرى فى مجاريها الطبيعية . فللغة قوانينها وللظواهر الاجتماعية نواميسها التى تسير عليها ، ومن ضياع الوقت فى غير جدوى ان تحول مجرى هذه القوانين او صدها عن عملها ، اذ لا نستطيع الى تغييرها سبيلا ولن نجد لسنتها تبديلا

هذه ايها الاخوة نظرة مختصرة عن قضية الازدواجيات ، ومشكلة تعدد اللغات ، واثر ذلك كله فى تربية ابناء الشعب العربى عموما وابناء المغاربة خصوصا . وانتم ترون معى ان لكل مشكل وجها خاصا ، يتطلب حلولا جذرية على الصعيد المحلى ووجها آخر عاما يقتضى بعض الحلول الممكنة على صعيد عالمنا العربى .

ومهما يكن من امر ، فاذا ما تغلبنا على حل مشكلنا الخاص المتعلق بالازدواجية الدخيلة وتنظيم دراسة اللغات الاجنبية فى مدارسنا ، نكون قد قطعنا اشواطا بعيدة فى طريق التربية والتعليم . ونكون قد ضربنا بالحجرة عصفورين . لان استعمال لغة موحدة وموحدة فى التعليم معناه التعريب الشامل والتوحيد الكامل ، وتتميم المغربة ، والسير بخطى ثابتة نحو قسط لا يستهان به من سياسة التعميم . وهى المبادىء التى اتفقت عليها بالاجماع اللجنة الملكية للتعليم ، تلك اللجنة التى كنت احد مقرريها .

وفى الختام ، انى لاعتقد اعتقادا جازما واقول مع المستشرق المبقرى ، يوهان فاك : « قد برهن جبروت التراث العربى التالد الخالد على انه اقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية عن مقامها المسيطر . واذا صدقت البوادر ، ولم تخطىء الدلائل ، فستحتفظ ايضا بهذا المقام العتيد ، من حيث هى لغة المدنية الاسلامية ، ما بقيت هناك مدنية اسلامية »

واملنا اخيرا ان يردد ابناؤنا فى القريب ، والابتسامة تعلو محياهم، والفرح يملأ صدورهم : « المغرب وطننا والعربية لغتنا ، وعليها وعلى رب العالمين ، نعتمد فى تربيتنا »

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .